عوامل إصلاح المجتمع المسلم

من المعلوم أن العوامل التي بها صلاح المجتمع الإسلامي وغير الإسلامي، هي العوامل التي قام بها إمام المرسلين، وخاتم النبيين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، وقام بها صحابته الكرام وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون المهديون: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان ذو النورين، وعلي المرتضى أبو الحسن، ثم من معهم من الصحابة رضي الله عن الجميع، وجعلنا من أتباعهم بإحسان.

ومن المعلوم أن هذه العوامل قام بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في مكة أولا، ثم في المدينة، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا الذي صلح به أولها كما قال أهل العلم والإيمان، ومن جملتهم الإمام المشهور مالك بن أنس إمام أهل الهجرة في زمانه، والفقيه المعروف، أحد الأئمة الأربعة قال هذه المقالة، وتلقاها أهل العلم في زمانه وبعده، ووافقوا عليها جميعا: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها).

والمعنى: أن الذي صلح به أولها وهو اتباع كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم هو الذي يصلح به آخرها إلى يوم القيامة.

ومن أراد صلاح المجتمع الإسلامي، أو صلاح المجتمعات الأخرى في هذه الدنيا بغير الطريق والوسائل والعوامل التي صلح بها الأولون فقد غلط، وقال غير الحق، فليس إلى غير هذا من سبيل، إنما السبيل إلى إصلاح الناس وإقامتهم على الطريق السوي، هو السبيل الذي درج عليه نبينا عليه الصلاة والسلام، ودرج عليه صحابته الكرام ثم أتباعهم بإحسان إلى يومنا هذا، وهو العناية بالقرآن العظيم، والعناية بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوة الناس إليهما والتفقه فيهما، ونشرهما بين الناس عن علم وبصيرة وإيضاح ما دل عليه هذان الأصلان من الأحكام في العقيدة الأساسية الصحيحة.

ومن الآراء التي يجب على المجتمع الإسلامي الأخذ بها، وبيان المحارم التي يجب على المجتمع الإسلامي الحذر منها، وبيان الحدود التي حدها الله ورسوله، حتى يقف عندها، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [1]، وهي المحارم، نهى عن قربانها باقتراف المعاصي كما نهى عن تعدي الحدود التي حدها لعباده وهي ما فرضه عليهم، وألزمهم به من العبادات والأحكام.

والرسول صلى الله عليه وسلم أول عمل عمله، وأول أساس رسمه، أنه دعا الناس إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، هذا أول عمل، وهذا أول أساس تكلم به ودعا إليه وسار عليه، هو دعوة الناس إلى توحيد الله، وإرشادهم إلى تفاصيل ذلك.

والكلمة التي دلت على هذا المعنى هي قول: لا إله إلا الله، هذه هي الأساس المتين، ومعها شهادة أن محمدا رسول الله.

هذان الأصلان والأساسان المهمان: هما أساس الإسلام، وهما أساس صلاح هذه الأمة، من أخذ بهما واستقام عليهما عملا وعلما ودعوة وصبرا، استقام له أمره وأصلح الله به الأمة، على قدر جهاده وقدرته وأسبابه، ومن أضاعهما أو أضاع أحدهما ضاع وهلك، ولما بعث الله نبيه عليه الصلاة والسلام، وأنزل القرآن، كان أول ما نزل عليه: اقرأ، ثم المدثر، فقام إلى الناس ينذرهم ويدعوهم إلى توحيد الله ويحذرهم نقمة الله عز وجل، ويقول: ((يا قوم قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا)) فاستكبر المشركون واستنكروا هذا؛ لأنه ليس الأمر الذي اعتادوه، وليس الأمر الذي أدركوا عليه أسلافهم، ولهذا استنكروه، وقالوا عند ذلك: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[2] وقالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ وقبلها قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[3] فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [4].

وبسبب تساهل الكثير من العلماء وطلبة العلم، وأعيان أهل الإسلام الذين فقهوا توحيد الله، بسبب التساهل في هذا الأصل الأصيل، انتشر الشرك في بلدان كثيرة، وعبدت القبور وأهلها من دون الله، وصرف لها الكثير من عبادة الله، فهذا يدعو صاحب القبر، وهذا يستغيث به، وهذا ينذر له، وهذا يطلبه المدد كما فعلت قريش وغيرها في الجاهلية مع العزى، وكما فعل غيرهم مع اللات ومع مناة، ومع أصنام أخرى، وكما يفعل المشركون في كل زمان مع أصنامهم وأوثانهم، في التعظيم والدعاء والاستغاثة، والتمسح والتبرك وطلب المدد.

وهذا من دسائس الشيطان ومن مكائده، فإنه أحرص شيء على إزاحة الناس عن عقيدتهم ودينهم، وعلى إبعادهم عنها بكل وسيلة.

فالواجب على طلبة العلم – وهم أمل الأمة بعد الله عز وجل في القيادة المستقبلة، وهم رجال الغد في أي جامعة تخرجوا – أن يقودوا السفينة بحكمة وإخلاص وصدق، وأن يعتنوا بالأساس وأن يعرفوا العامل الوحيد العظيم الذي عليه الارتكاز، والذي يتبعه ما سواه، وهو العناية بتوحيد الله والإخلاص له، والعناية بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله حقا، وأن الواجب اتباعه، والسير في منهاجه، وأن صحابته هم خير الأمة، وهم أفضلها، فيجب حسن الظن بهم، واعتقاد عدالتهم، وأنهم خير الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم حملة السنة وحملة القرآن، فوجب السير على منهاجهم والترضي عنهم جميعا، واعتقاد أنهم خير الناس، وهم أفضل الناس بعد الأنبياء كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم))، وهناك أحاديث أخرى دلت على ذلك.

فأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، هم خير الناس بعد الأنبياء، وهم أفضل الناس، وهم على مراتب في الفضل، فأفضلهم الخلفاء الراشدون ثم بقية العشرة المشهود لهم بالجنة، ثم الباقون على مراتبهم، وعلى حسب علمهم وفضلهم.

فوجب أن نعنى بهذا الأساس وأن ندعو الناس إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وألا نغلو في القبور والأنبياء والأولياء وتعبدهم مع الله، وتصرف لهم العبادة من دعاء أو خوف أو رجاء أو نحو ذلك.

ويجب على طالب العلم وعلى القائد أن يعظم أمر الله ونهيه، وأن يستقر خوف الله في قلبه، فوق جميع الأشياء، وأن يعظم أمره ونهيه، وألا يبالي بما يرجف به المرجفون ضد الحق وأهله ثقة بالله، وتصديقا لما وعد رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وكافة الرسل كما في قوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ × وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [5] الآية، فطالب العلم العالم والموجه، والقائد البصير لا يبالي بإرجاف عباد القبور، ولا بإرجاف الخرافيين، ولا بإرجاف من يعادي الإسلام من أي صنف، بل يصمد في الميدان، ويصبر ويعلق قلبه بالله، ويخافه سبحانه، ويرجو منه النصر جل وعلا، فهو الناصر وهو الولي سبحانه وتعالى، وقد وعد أن ينصر من ينصره فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[6] ويقول سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[7] لكن بالشرط وهو التمسك بدين الله، والإيمان به، والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم، والاستقامة على دين الله.

هذا هو السبب، وهذا هو الشرط في نصر الله لنا، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ × الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [8].

وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[9]. فهذا وعده عز وجل لمن استقام على الإيمان والهدى والعمل الصالح: أن الله يستخلفه في الأرض ويمكن له دينه، ويؤمنه ويعيذه من شر الأعداء ومكائدهم وينصره عليهم.

ومن تحقيق شهادة أن محمدا رسول الله تعظيم سنته، والدعوة إليها وتنفيذ مقاصدها، والتحذير من خلافها، وتفسير القرآن الكريم بها فيما قد يخفى من آياته، فإنه يفسر بالسنة ويوضح بها، فالسنة توضح القرآن وتبينه وتدل عليه، وتعبر عنه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[10].

هذا الأساس العظيم يجب أن يكون منه المنطلق للدعاة المخلصين، والمصلحين في الأرض، الذين يريدون أن يتولوا إصلاح المجتمع والأخذ بيده إلى شاطئ السلامة، وسفينة النجاة، كي يرتكز هذا الإصلاح على أعظم عامل، وهو الإخلاص لله في العبادة والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام، وتعظيم أمره ونهيه، باتباع شريعته والحذر مما يخالفها.

ثم بعد ذلك ينظر في العوامل الأخرى التي هي تابعة لهذا الأساس، فيدعو إلى أداء فرائض الله من صلاة وزكاة وصوم وحج، وغير ذلك وينهى عن محارم الله من الشرك وما دونه من سائر المعاصي والشرور، ويسعى بالإصلاح بين الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك.

فهو ساع بكل جهده إلى إقامة أمر الله في أرض الله، وإلى ترك محارم الله والوقوف عند حدود الله، وإلى الحذر من البدع المحظورة في الدين، هكذا يكون المصلح الموفق بأخذ العوامل عاملا عاملا مع مراعاة الأساس المتين، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله علما وعملا، فهو يعلمها الناس ويعمل بها في نفسه، فيوحد الله، ويخصه بالعبادة وينقاد لشريعته خلف رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، يتلقى السنة ويعظمها كما عظمها الصحابة، ويسير على نهجها وعلى مقتضاها مع كتاب الله كما سار الصحابة، فإن علم الصحابة من كتاب الله ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ما عندهم كتب أخرى، وإنما جاءت الكتب بعدهم.

أما الصحابة والتابعون فكانت سيرتهم، وكانت أعمالهم مستقاة من الكتاب العظيم، يتدبرونه ويقرؤونه بقصد صالح، بقصد العلم والإفادة والعمل، ومن السنة كذلك يدرسونها ويحفظونها، ويأخذون منها العلم والعمل.

هكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان التابعون لهم بإحسان قبل وجود المؤلفات في الحديث وغير الحديث.

فقدر لنفسك مع أولئك، واستنبط من كتاب ربك، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن كلام أهل العلم ما يعينك على فهم كتاب الله، وعلى فهم السنة، وكن حريصا على العلم والفقه في الدين حتى تستطيع أن توجه المجتمع إلى الطريق السوي، وتأخذ بيده إلى شاطئ السلامة، وحتى تعلم كيف تعمل، فتبدأ بنفسك، وتجتهد في إصلاح سيرتك ومسابقتك إلى كل خير، فتكون مع أول الناس في الصلاة، ومع أول الناس في كل خير، وتكون من أبعدهم عن كل شر، تمتثل تنفيذ كتاب الله، وتنفيذ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم في أعمالك وفي أقوالك مع زملائك وإخوانك وأعوانك.

هكذا يكون المؤمن، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم، وهكذا كان أتباعهم من التابعين، وأتباع التابعين والمصلحين، وأئمة الهدى يدرسون كتاب الله، ويعملون بما فيه ويقرئونه الناس ويعلمونهم إياه، ويرشدونهم إلى معانيه، ويعلمونهم السنة ويحثونهم على التمسك بها والفقه فيها، ويوصونهم بتعظيم الأوامر والنواهي، والوقوف عند الحدود التي حدها الله ورسوله مدة حياتهم في هذه العاجلة.

فكل عامل من عوامل الإصلاح يتطلب إخلاصا وصدقا، فالدعوة إلى توحيد الله تحتاج إلى إخلاص وصدق وبيان معنى لا إله إلا الله، وأن معناها: لا معبود حق إلا الله، وأن الواجب الحذر من الشرك كله دقيقه وجليله، وتحذير الناس منه كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما فعل أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم.

وبتدبر القرآن العظيم يتضح هذا المعنى كثيرا، وهكذا السنة تعظيمها والدعوة إليها بعد الإيمان أن محمدا رسول الله، وأن الواجب اتباعه وأن الله أرسله إلى الناس كافة، عربهم وعجمهم، جنهم وإنسهم، ذكورهم وإناثهم، فعلى جميع أهل الأرض أن يتبعوه، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[11] وقال قبلها سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[12].

فمن اتبعه وعظم أمره ونهيه فهو المفلح، ومن حاد عن ذلك وتبع الهوى والشيطان فهو الخاسر الهالك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والعوامل تتعدد بحسب ما تدعو إليه، وما تنهى عنه، فأنت تجتهد في اختيار العامل الذي تقوم به العامل الشرعي الذي عرفت أصله، وعرفت مأخذه من كتاب الله، ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنت تدعو الناس إلى دين الله، وإلى أداء فرائض الله، وإلى ترك محارم الله على الطريقة التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعوامل والمجتمعات تختلف، فالمجتمع المحارب للدين، والذي ليس فيه قائد يعينك على الإصلاح والتوجيه تعمل فيه كما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، تدعو إلى الله بالحسنى وبالأسلوب الحسن، وبالكلمات اللينة، حتى يدخل ما تقول في القلوب، وحتى يؤثر فيها فيحصل بذلك انجذاب القلوب إلى طاعة الله وتوحيده، وتتعاون مع إخوانك ومن سار على نهجك في دعوة الناس وإرشادهم بالطرق اللينة في المجتمعات التي يمكن حضورها حتى يثبت هذا الإيمان في القلوب، وحتى ينتشر بين الناس بأدلته الواضحة.

وفي المجتمع الإسلامي، ووجود القائد الإسلامي الذي يعينك يكون لك نشاط أكثر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاتصال بالمسئولين عند وجود المعاندين، والذين يخشى من عنادهم الخطر على المجتمع، وتكون مع ذلك سالكا المسلك القويم بالرفق والحكمة والصبر، كما قال عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ × إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ × إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[13] فلا بد من صبر وتواص بالحق، ودعوة إليه، حتى تنجح في مهمتك، وكذلك المسئولون والكبار الذين يخشى من شرهم على الدعوة، ينصحون بالأسلوب الحسن، ويوجهون، ويدعون بالكتابة والمشافهة من أعيان الأمة ورجالها وقادتها وأمرائها، كما قال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[14] الآية، وكما قال سبحانه لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام لما بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[15].

فالواجب على المصلحين والدعاة أن يسلكوا هذا السبيل، وأن يعالجوا مشكلات المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يخاطبوا كل إنسان بما يليق به، حتى ينجحوا في مهمتهم، ويصلوا إلى غايتهم.

وعلى الداعي أيضا إلى الله سبحانه والراغب في الإصلاح أن يراعي عاملين آخرين، سوى العاملين السابقين وهما: عامل التناصح والتواصي بالحق مع إخوانه وزملائه ومع أعيان المجتمع وقادته وعامل الصبر على ما قد يقع من الأذى من الأعيان أو غيرهم عملا بما دلت عليه السورة السابقة وهي قوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ × إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ × إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الحياء من الإيمان

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على رَجُل من الأنصار وهُو يَعظ أخاهُ في الحياء، فقال عليه الصلاة والسلام:

((دَعْهُ فإنّ الحياءَ من الإيمان))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك في الموطأ عن عبد الله بن عمر]

هذا الحديث يربط بين الخُلق وبين الإيمان، والحقيقة التي يغفل عنها معظم الناس أنه لا يمكن أن تكون أخلاقيا إلا إذا كنت مؤمنا، لأن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبدا منحه خلقاً حسناً.

فالحياء من الإيمان، رحمة القلب من الإيمان، الإنصاف من الإيمان، التواضع من الإيمان، فإذا أردت خلقا حسنا فابحث عن الإيمان، الإيمان أساس الخلق الحسن.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((الحياء لا يأتي إلا بخير))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين]

الفضائل كلها لها حدود معتدلة، فالحياء خلق، أما الخجل فمرض، إنسان يخجل أن يطالب بحقه، يخجل أن يعلن عن اتجاهه، يستحي بدينه، هذا خجل، وإنسان يكون وقحا، لا يعبأ بأحد مرض: فالخجل مرض، والوقاحة مرض، بينهما الحياء، ولو ذهبت لمعظم المكارم الأخلاقية لوجدت أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، فالحياء فضيلة، الخجل رذيلة، الوقاحة رذيلة، الشجاعة فضيلة، التهور رذيلة، الجبن رذيلة، الكرم فضيلة، الإشراف رذيلة، التقصير رذيلة، فدائما الفضيلة وسط بين رذيلتين:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

[سورة البقرة الآية:143]

وسطاء، وهناك اعتدال بالخلق بين تطرفين.

الحياء رادع داخلي:

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((الحياء لا يأتي إلا بخير))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين]

إذا الإنسان استحى أن يعمل معصية معنى هذا أن الحياء لجام، الحياء رادع داخلي، وبالمناسبة الإنسان يُحب أن يدعو إلى الله، أما إذا وجدت إنسانا أخلاقيا، و لو كان غير مسلم فإنك ستحترمه، أما إنسان غير أخلاقي أبدا، لو رأيته له عبادات لا تعبأ به إطلاقا، لأنه لو كان له اتصال بالله لكان على شيء من الخلق، فما لم يتصل بالله إطلاقا ستجد بالمقابل لا يوجد له أخلاق أبداً، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام))

[أحمد عن أبي هريرة]

قال له:

((أسلمت على ما أسلفت لك من خير))

[أخرجه البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام]

ولا يوجد مؤمن تفوق إلا لسبب بالجاهلية، كان له مواقف أخلاقية، فلما جاءه الهدى تفاعل معه: فالإنسان إن لم يكن فيه رحمة إطلاقا، ولا يوجد عنده إنصاف أبدا، وقح إلى درجة متناهية، هذا الإنسان لا ترجو منه الخير إطلاقا، لأنه مقطوع عن الله، فإذا بدا لك منه عبادة، أو التزام بالدين، فهذا لا يقدم ولا يؤخر، غير الملتزم الأخلاقي أقرب إلى الله من الملتزم اللاأخلاقي.

وفي رواية لمسلم:

((الحياء خير كله))

[مسلم عن عمران بن حصين]

الحياء خير.

الإيمان المنجي هو الإيمان الذي يحمل الإنسان على طاعة الله :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

الإنسان أحيانا يفعل عملا، هذا العمل لا بد من أن يُفسر بالإيمان، شخص وجد قشرة موز في الطريق أزاحها، إذا أماط الأذى عن الطريق فهذا العمل يعد من أقل درجات الإيمان، وأن تصل إلى التوحيد هذا من أعلى درجات الإيمان، أعلى شيء في الإيمان التوحيد: فبين أن تميط الأذى عن الطريق وبين أن توحد ثلاثا وسبعين درجة، أو ثلاثا وستين درجة من هذه الدرجات، والحياء شعبة من الإيمان، لذلك الإيمان دائرة تتسع لكل المؤمنين، مركزها النبوة، فهناك مؤمن على المحيط، وهناك مؤمن بالأعماق، فكلما تقدمت إلى مركز الدائرة كنت أقرب إلى قوة الإيمان، مركز الدائرة النبوة.

أي كل شخص قال: لا إله إلا الله، إنسان عمل عملا صالحا ابتغاء وجه الله، عمل صالح واحد هذا أدخله في دائرة الإيمان، لكن ما كل عمل يدخله في دائرة الإيمان يردعه عن المعاصي والآثام، الإيمان المنجي الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، هناك إيمان غير منج، لذلك:

((الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

الإيمان أن تجمع بين الأخذ بالأسباب وأن تتوكل على الله عز وجل :

التوحيد هو أعلى درجة في الإيمان، ما كل مؤمن موحد، الله عز وجل قال:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

[سورة يوسف الآية:106]

مؤمن بالله خالق الكون، لكن يرى قوى بالحياة يتقيها ويهابها مما سوى الله عز وجل، فهذا شرك، عندنا شرك جلي، وعندنا شرك خفي: الجلي قلما تجده في العالم الإسلامي، أما الخفي فمنتشر وواسع جدا، يقول الله عز وجل:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

[سورة يوسف الآية:106]

فالإنسان إذا استطاع أن يصل إلى الإيمان بلا إله إلا الله، ومات غير مشرك، وجبت له الجنة، واستحق شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي يشفع لمن مات غير مشرك، والشرك واسع جدا.

الإنسان إذا اعتمد على ماله فقد أشرك، إذا اعتمد على أولاده فقد أشرك، إذا اعتمد على صحته فقد أشرك، إذا اعتمد على خبرته فقد أشرك، بل إن الإيمان أن تجمع بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل على الله، والجمع بينهما يحتاج إلى جهد، فالذي يأخذ بالأسباب يتوهم أنه وصل إلى نتائج ينسى الله عز وجل، وهذه مشكلة الغرب: أخذوا بالأسباب، وألهوها، ونسوا الله عز وجل، والشرق لم يأخذ بالأسباب فعصى، والإيمان أن تجمع بين الأخذ بالأسباب، وأن تتوكل على الله عز وجل، هذا الذي يرقى بك إلى مستوى الإيمان بلا إله إلا الله، ومع الإيمان بلا إله إلا الله لا ترى أحدا مع الله، ولا ترى منعما إلا الله، ولا ترى جهة تخيفك إلا الله، هذا الإيمان كفكرة سهلة، أما أن تعيش هذا المعنى، فهذا يحتاج إلى جهد كبير، أما أن تعيش هذه الفكرة، أن تذكرها، أن تشرحها، فالقضية سهلة.

فالإنسان أحيانا يضعه الله في امتحان صعب، شخص قوي، وفيما يبدو لك أنه يفعل ما يقول، وكان له إرادة، وفعل مستقلة عن الله عز وجل، فالإيمان البسيط يتزلزل أمام هذا الشخص القوي، أما الإيمان القوي فيضعف، الإيمان القوي يُضعف الخوف من هذا الإنسان، فلا يعبأ به.

البر و الإثم :

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال:

((سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: البِرّ: حُسْنُ الخُلق، والإثم: ما حَاكَ في صَدْرِك وكرهت أن يَطّلِعَ عليه النّاسُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن النواس بن سمعان]

البر: حسن الخلق، أما الإثم فما حاك في صدرك، هذه الفطرة السليمة، الإنسان يعلم علم اليقين ما إذا كان على حق، أو على باطل:

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ × وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾

[سورة القيامة الآية:14–15]

فالشيء الذي تكره أن يطلع الناس عليه هذا هو الشيء غير الصحيح، هذا هو الإثم بعينه، فالنفوس جبلت جبلة راقية، فما دامت على حق لا تستحي بحالها، ما دامت على باطل تستحي به، إذا النفس بصيرة، ولو نمينا بالإنسان الفطرة العالية لحلت كل مشكلاتنا.

كل إنسان يبحث عن راحته، وعن سلامته، راحته في طاعة الله، والدليل: الطاعة مريحة للإنسان؛ الصادق مستريح، الصادق أمين، الصادق متوازن، أما الإنسان إذا خرج عن فطرته، فالاضطراب يبدأ، والكآبة تبدأ، فالكآبة هي عذاب الفطرة لصاحبها.